سورة الروم

هى مكية إلا قوله تعالى : « وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ » فمدنية ، وعدة آيها ستون ، نزلت بعد سورة الانشقاق.

ومناسبتها ما قبلها من وجوه :

(١) إن السورة السابقة قد بدئت بالجهاد وختمت به ، فافتتحت بأن الناس لم يخلقوا فى الأرض ليناموا على مهاد الراحة ، بل خلقوا ليجاهدوا حتى يلاقوا ربهم ، وأنهم يلاقون شتى المصاعب من الأهل والأمم التى يكونون فيها ، وهذه السورة قد بدئت بما يتضمن نصرة المؤمنين ودفع شماتة أعدائهم المشركين ، وهم يجاهدون فى الله ولوجهه ، فكأن هذه متممة لما قبلها من هذه الجهة .

(٢) إن مافى هذه السورة من الحجج على التوحيد والنظر فى الآفاق والأنفس مفصل لما جاء منه مجملا فى السورة السالفة ، إذ قال فى السالفة : « فَانْظُرْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ » الخ ، وهنا بيّن ذلك ، فقال : « أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » الخ ، وقال : « اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » الخ .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الٓمٓ (١) غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ (٤) بِنَصْرِ اللهِ يَنْصُرُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (٥) وَعْدَ اللهِ لَا يُخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٦) يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ (٧) .

شرح المفردات

الروم : أمة عظيمة من ولد روم بن عيص بن إسحق بن إبراهيم ، كذا قال النسّابون من العرب ، أدنى الأرض: أى أقربها من الروم ، والأقربية بالنظر إلى أهل مكة الذين يساق إليهم الحديث ، والبضع : ما بين الثلاث إلى العشر ، وقال : المبرد ما بين العقدين فى جميع الأعداد ، ظاهر الحياة الدنيا : هو ما يشاهدونه من زخارفها ولذاتها الموافقة لشهواتهم التى تستدعى انهماكهم فيها وعكوفهم عليها .

المعنى الجملى

روى أن فارس غزوا الروم ، فوافوهم بأذْرِعات وبُصْرى من أرض الشام ، فغلبوا عليهم ، و بلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهو بمكة ، فشق عليهم من قِبَل أن الفرس مجوس ، والروم أهل كتاب وفرح المشركون بمكة وشمتوا ، ولقوا أصحاب النبى وهم فرحون ، وقالوا : إنكم أهل كتاب ، والنصارى أهل كتاب ، وقد ظهر إخواننا من أهل فارس على إخوانكم من أهل الكتاب ، و إنكم إن قاتلتمونا لنظهرَنّ عليكم ، فأنزل الله هؤلاء الآيات ، فخرج أبو بكر رضى الله عنه إلى المشركين فقال : أفرحتم بظهور إخوانكم على إخواننا ؟ فلا تفرحوا ولا يَقرَّنّ الله أعينكم (لايسرنكم) فوالله لتظهرنّ الروم على فارس كما أخبرنا بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم فقام إليه أبىّ بن خلف ؛ فقال : كذبت ، فقال : أنت أكذب يا عدو الله ، اجعل بيننا أجلا أُناحِبك عليه (أراهنك) على عشر قلائص منى ، وعشر قلائص منك ، فإن ظهرت الروم على فارس غرِمْتَ ، و إن ظهرت فارس غرمتُ إلى ثلاث سنين ، فناحبه ، ثم جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فقال عليه السلام : زايده فى الخطر ومادّه فى الأجل ، فخرج أبو بكر ، فلقى أبيًّا ، فقال : لعلك ندمت ، فقال : لا ، تعال أزايدك فى الخطر ، وأمادّك فى الأجل ، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين ، قال : قد فعلتُ ، فلما أراد أبو بكر الهجرة طلب منه أبىّ كفيلا بالخطر إن غُلِب ،

فكفل به ابنه عبد الرحمن ، فلما أراد أبىّ الخروج إلى أُحُد طلبه عبد الرحمن بالكفيل فأعطاه كفيلا ، ومات أبىّ من جُرح جرحه إياه النبى صلى الله عليه وسلم فى الموقعة وظهرت الروم على فارس لما دخلت السنة السابعة ، فأخذ أبو بكر الخطر من ورثة أبىّ وجاء به إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال النبى صلى الله عليه وسلم : تصدق به (وقد كان هذا قبل تحريم القمار كما أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم والبيهقى ، لأن السورة مكية وتحريم الخمر والميسر بالمدينة) .

الإيضاح

(الٓمٓ) تقدم فى السورة قبلها ما فيه الكفاية من الكلام فى أمثال هذه الحروف فى أوائل السور ، وقد بينا هناك أنه ينطق بأسمائها فيقال (ألف . لام . ميم) .

(غلبت الروم . فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . فى بضع سنين) أى غلبت فارس الروم فى أقرب أرض الروم بالنسبة إلى بلاد العرب ، إذ الوقعة كانت بين الاردُن وفلسطين ، والروم من بعد غلب فارس إياهم سيغلبون فارس فى بضع سنين ، وقد تحقق ذلك فغلبوهم بعد سبع من الوقعة الأولى .

ولا شك أن وقوعه على نحو ما قال الكتاب الكريم يعد من أكبر الدلائل على إعجازه ، وأنه كلام الله العليم بكل شىء لا كلام البشر .

(لله الأمر من قبل ومن بعد) أى لله الأمر من قبل غلب دولة الروم على فارس ومن بعدها ، فمن غلب فهو بأمر الله وقضائه وقدره كما قال : « وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ » فهو يقضى فى خلقه بما يشاء ويحكم بما يريد ، ويظهر من شاء منهم على من أحب إظهاره عليه .

(ويومئذ يفرح المؤمنون . بنصر الله) أى ويوم تغلب الروم فارس يفرح المؤمنون بنصر الله وتغليبه من له كتاب على من لا كتاب له ، وغيظ من شمتوا من كفار مكة ، وأنه سيكون فألا حسنا لغلبة المؤمنين على الكافرين .

ثم أكد قوله لله الأمر بقوله :

(ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم) أى ينصر من يشاء أن ينصره على عدوه ويغلبه عليه على مقتضى السنن التى وضعها فى الخليقة ، وهو المنتقم ممن يستحقون الانتقام بالنصر عليهم ، الرحيم بعباده فلا يعاجلهم بالانتقام على ذنوبهم كما قال : «وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَـكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى » .

(وعد الله لايخلف الله وعده ولـكن أكثر الناس لايعلمون) أى وعد الله وعدا بظهور الروم على فارس ، والله لايخلف ما وعد ، ولـكن أكثر الناس لايعلمون ذلك لجهلهم بشئونه تعالى وعدم تفكرهم فى النواميس والسنن التى وضعها فى الـكون ، فإنه قد جعل من تلك السنن أن وعده لايخلف، فإنه مبنى على مقدمات ووسائل هو يعلمها ، وقد رتب عليها تلك العِدَة التى وعدها ، وجعل قانون الغلب فى الأمم والأفراد مبنيا على الاستعداد النفسى والاستعداد الحربى ؛ فلا تغلب أمة خرى إلا بما أعدت لها من وسائل الظفر بها ، وما كان لها من صفات تكفل لها هذا الظفر من أناة وصبر وتضحية بما تملك من عزيز لديها من مال أو نفس .

وهكذا حكم الفرد فهو لاينجح فى الحياة إلا إذا كان معه أسلحة يغالب بها عوامل الأيام حتى يغلب عليها بجده وكده ، فهذه الأمور وأشباهها تحتاج إلى دقة نظر لايدركها إلا ذوو البصائر .

(يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا) كتدبير معايشهم، و إحسان مساكنهم، وتنمية متاجرهم ، وتصرفهم فى مزارعهم ، على النحو الذى يجعلها تزدهر وتفى بحاجة المجتمع .

(وهم عن الآخرة هم غافلون) أى وهم غافلون عن أن النفوس لها بقاء بعد الموت وأنها ستلبس ثوبا آخر فى حياة أخرى ، وستنال إذ ذاك جزاء ما قدمت من خير أو شر ، ولو لم تكن النفوس تتوقع هذه الحياة لكانت آلام الدنيا ومتاعبها لاتطاق

ولا تجد النفوس لاحتمالها سبيلا ، وهى ما قبلت تلك الآلام واحتملتها إلا لأنها توقن بسعادة أخرى وراء ما تقاسى من المتاعب فى هذه الحياة ، ولله در القائل :

ومن البلية أن ترى لك صاحبا ... فى صورة الرجل السميع المبصر
فطن بكل مصيبة فى ماله ... وإذا يصاب بدينه لم يشعر

أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ (٨) أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٩) ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاءُوا السُّوءَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ (١٠) .

المعنى الجملى

لما أنكر المشركون الإله بإنكار وعده وأنكروا البعث كما قال وهم عن الآخرة هم غافلون ـ أردف هذا بأن الأدلة متظاهرة فى الأنفس والآفاق على وجوده وتفرده بخلقها ، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه وأنها لم تخلق سدى ولا باطلا ، بل خلقت بالحق وأنها مؤجلة إلى أجل مسمى هو يوم القيامة ، ثم أمرهم بالسير فى أقطار الأرض ليعلموا حال المكذبين من الأمم قبلهم ، وقد كانوا أشد منهم بأسا وقوة ، فكذبوا رسلهم فأهلكهم الله وصاروا كأمس الدابر والمثل الغابر ، وما كان ذلك إلا بظلمهم وفساد أنفسهم لا بظلم الله لهم .

الإيضاح

(أو لم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى ؟) أى أو لم يتفكر هؤلاء المكذبون بالبعث من قومك فى خلق الله إياهم وأنه خلقهم ولم يكونوا شيئا ، ثم صرّفهم أحوالا وتارات حتى صاروا رجالا ، فيعلموا أن الذى فعل ذلك قادر أن يعيدهم بعد فنائهم خلقا جديدا ، ثم يجازى المحسن منهم بإحسانه والمسىء بإساءته ، لا يظلم أحدا منهم فيعاقبه بدون جُرم صدر منه ، ولا يحرم أحدا منهم جزاء عمله ، لأنه العدل الذى لا يجور ، فهو ما خلق السموات والأرض وما بينهما إلا بالعدل و إقامة الحق إلى أجل مؤقت مسمى ، فإذا حل الأجل أفنى ذلك كله و بدل الأرض غير الأرض و برزوا للحساب جميعا .

ثم ذكر أن كثيرا من الناس غفلوا عن الآخرة وما فيها من حساب وجزاء فقال :

(و إن كثيرا من الناس بلقاء ربهم لكافرون) لأنهم لم يتفكروا فى أنفسهم ولو تفكروا فيها ودرسوا عجائبها لأيقنوا بلقاء ربهم وأن معادهم إليه بعد فنائهم .

ثم نبههم إلى صدق رسله فيما جاءوا به عنه بما أيدهم به من المعجزات والدلائل الواضحة من إهلاك من جحد نبوتهم ونجاة من صدقهم فقال :

(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها ، وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى أو لم يسر هؤلاء المكذبون بالله الغافلون عن الآخرة فى البلاد التى يسلكونها تجّارا ، فينظروا إلى آثار الله فيمن كان قبلهم من الأمم المكذبة ، كيف كان عاقبة أمرها فى تكذيبها رسلها ، وقد كانوا أشد منهم قوة وحرثوا الأرض وعمروها أكثر مما عمر هؤلاء ثم أهلكهم الله بكفرهم وتكذيبهم رسله ، وما كان الله بظالم لهم بعقابه إياهم على تكذيبهم رسله وجحودهم آياته ، ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بمعصيتهم ربهم .

والخلاصة — إنه قد كان لكم فيمن قبلكم من الأمم معتبر ومزدجر ، فقد كانوا أكثر منكم أموالا وأولادا ومُكّنوا فى الدنيا تمكينا لم تبلغوا معشاره ، وعمروا فيها أعمارا طوالا واستغلوها أكثر من استغلالكم ، ولما جاءتهم الرسل بالبينات كذبوهم وفرحوا بما أوتوا فأخذوا بذنوبهم ولم تغن عنهم أموالهم شيئا ولم تحل بينهم و بين بأس الله .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون) أى ثم كان العذاب عاقبتهم ، أما فى الدنيا فلهم البوار والهلاك ، وأما فى الآخرة فالنار لايخرجون منها ولا هم يستعتبون ، وما ذاك إلا لأن كذبوا بحجج الله وآياته وهم أنبياؤه ورسله ، وسخروا منهم عنتا وكبرا .

اللهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (١١) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ(١٢) وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ (١٣) وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ (١٤) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ (١٥) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (١٦) .

شرح المفردات

يبلس المجرمون : أى يسكتون وتنقطع حجتهم ، الروضة : الأرض ذات النبات والماء ؛ ويقال أراض الوادى واستراض: إذا كثر ماؤه ، وأراض القوم : أرواهم بعض لرى ، يحبرون: يسرون، يقال حبره يحبره (بالضم) حبرا وحبورا: إذا سره سرورا تهلل له

وجهه وظهر فيه أثره ، وفى المثل : امتلأت بيوتهم حِبرة ، فهم ينتظرون العِبْرة ، محضرون : أى مدخلون فيه لايغيبون عنه .

المعنى الجملى

بعد أن بين أن عاقبة المجرمين النار وكان ذلك يستلزم الإعادة والحشر لم يتركه دعوى بلا بينة ، بل أقام عليه الدليل بأن أبان أن من خلق الخلق بقدرته و إرادته لايعجز عن رجعته ، ثم بين ما يكون حين الرجوع من إفلاس المجرمين وتحقق يأسهم وحيرتهم ، إذ لاتنفعهم شركاؤهم ، بل هم يكفرون بهم ، ثم ذكر أن الناس حينئذ فريقان : فريق فى الجنة وفريق فى السعير ، فالأولون يتمتعون بسرور وحبور ، والآخرون يَصْلَوْن النار دأبا لايغيبون عنها أبدا .

الإيضاح

(الله يبدأ الخلق ثم يعيده ثم إليه ترجعون) أى الله ينشئ جميع الخلق بقدرته وهو منفرد بإنشائه من غير شريك ولا ظهير ، ثم يعيده خلقا جديدا بعد إفنائه و إعدامه كما بدأه خلقا سويا ولم يك شيئا ، ثم إليه يردون فيحشرون لفصل القضاء بينهم ، فيجزى الذين أساءوا بما عملوا و يجزى الذين أحسنوا الحسنى .

ثم بين ما سيحدث فى هذا اليوم من الأهوال للأشقياء والنعيم والحبور للسعداء ، فقال :

(و يوم تقوم الساعة يبلس المجرمون) أى ويوم تجىء الساعة التى فيها يفصل الله بين خلقه بعد نشرهم من قبورهم وحشرهم إلى موقف الحساب ـ يسكت الذين أشركوا بالله واجترحوا فى الدنيا مساوى الأعمال ، إذ لايجدون حجة يدفعون بها عن أنفسهم ما يحل بهم من النكال والوبال .

ولما كان الساكت قد يغنيه غيره عن الكلام نفى ذلك بقوله :

(ولم يكن لهم من شركائهم شفعاء) أى ولم يكن لهؤلاء المجرمين من شركائهم الذين كانوا يتبعونهم على ما دعوهم إليه من الضلالة ـ شفعاء يستنقذونهم من عذاب الله ، و إذ ذاك يستبين لهم جهلهم وخطؤهم إذ قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله .

ولما ذكر سبحانه حال الشفعاء معهم ذكر حالهم مع الشفعاء بقوله :

(وكانوا بشركائهم كافرين) أى وجحدوا ولاية الشركاء وتبرءوا منهم كما جاء فى آية أخرى « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ . وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا » .

ثم بين بعدئذ أن الله يميز الخبيثين من الطيبين فقال :

(ويوم تقوم الساعة يومئذ يتفرقون) أى ويوم تجىء الساعة التى يحشر فيها الخلق إلى الله يومئذ يتفرق أهل الإيمان بالله وأهل الكفر به ؛ فأما أهل الإيمان به فيؤخذ بهم ذات اليمين إلى الجنة ، وأما أهل الكفر فيؤخذ بهم ذات الشمال إلى النار ، قال قتادة : فرقة والله لا اجتماع بعدها .

ثم بين كيف يكون كل من الفريقين فقال :

(فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فهم فى روضة يحبرون) أى فأما الذين آمنوا بالله ورسوله وعملوا بما أمرهم الله به وانتهوا عما نهاهم عنه ، فهم فى رياض الجنات يمرحون و بألوان الزَّهَر والسندس الأخضر يتمتعون ، ويتلذذون بالسماع والعيش الطيب الهنى .

(وأما الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة فأولئك فى العذاب محضرون) أى وأما الذين جحدوا توحيد الله وكذبوا رسله وأنكروا البعث بعد الممات والنشور للدار الآخرة فأولئك فى عذاب الله محضرون لا يغيبون عنه أبدا .

فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ (١٧) وَلَهُ الْحَمْدُ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ (١٨) يُخْرِجُ الْحَىَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَىِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ (١٩).

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حالى الفريقين المؤمنين الذين يعملون الصالحات ، والكافرين المكذبين بالآيات، وما أعد لكل منهما من الثواب والعقاب ـ أرشد إلى ما يفضى إلى الحال الأولى وينجى من الثانية ، وهو تنزيه الله عز وجل عن كل ما لا يليق به ، وحمده ، والثناء عليه بما هو أهل له من صفات الجلال والكمال .

ولما كان الإنسان حين الإصباح يخرج من حال النوم التى هى أشبه بالموت منها إلى اليقظة وكأنها حياة بعد موت ـ أتبع ذلك بذكر الموت والحياة حقيقة .

الإيضاح

(فسبحان الله حين تمسون وحين تصبحون) أى نزهوا الله سبحانه فى وقت المساء حين إقبال الليل وظلامه ، وحين الصباح حين إسفار النهار بضيائه .

(وله الحمد فى السموات والأرض) أى والله هو المحمود من جميع خلقه فى السموات من سكانها من الملائكة ، وفى الأرض من أهلها من أصناف خلقه فيها .

(وعشيا وحين تظهرون) أى ونزهوه وقت العشى حين اشتداد الظلام ، ووقت الظهيرة حين اشتداد الضياء كما قال : « وَالنَّهَارِ إِذَا جَلَّاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا » ، وقال : « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى » .

وتخصيص هذه الأوقات من بين سائرها لما فيها من التبدل الظاهر فى أجزاء الزمن ، والانتقال من حال إلى أخرى على صورة واضحة ، كالانتقال من الضياء إلى الظلام فى المساء ، ومن الظلام إلى النور فى الإصباح ، ومن ضياء تام وقت الظهيرة إلى اضمحلال لذلك الضياء وقت العشى ، وهكذا .

ثم بين صفات ذلك الإله المستحق للثناء والتقديس ، فقال :

(١) (يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى) فهو القادر على خلق الأشياء المتقابلة بعضها من بعض ، فيخرج الإنسان والطائر من النطفة والبيضة ، كما يفعل ضد هذا ، فيخرج النطفة والبيضة من الإنسان والطائر ، وفى هذا دلالة على كمال قدرته ، وبديع صنعه ، وكون البيضة والنطفة كائن حى لاتعرفه العرب ولا تعترف به .

(٢) (ويحيي الأرض بعد موتها) أى ويحيى الأرض بالمطر ، فتخرج النبات الغض بعد أن كانت صعيداً جرزا .

ونحو الآية قوله : « وَآيَةٌ لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيْتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ » وقوله : « وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ » .

(٣) (وكذلك تخرجون) أى وكما سهل حركة النائم الساكن بالانتباه ، وإحياء الأرض بإنباتها بعد موتها ـ يسهل عليه إحياء الميت وإخراجه من قبره لفصل القضاء

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ (٢٠) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٢١) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بتنزيهه عن الأسواء والنقائص التى لاتليق بجلاله وكماله ، ثم ذكر أن الحمد له على خلقه جميع الموجودات ، و بين قدرته على الإماتة والإحياء بقوله : (وكذلك تخرجون) ، ذكر هنا أدلة باهرة ، وحججا ظاهرة على البعث والإعادة ، ومنها : خلقكم من التراب الذى لم يشم رائحة الحياة ، ولامناسبة بينه و بين ما أنتم عليه فى ذاتكم وصفاتكم ، ثم إبقاء نوعكم بالتوالد ، فإذا مات الأب قام ابنه مقامه ، لتبقى سلسلة الحياة متصلة بهذا النوع و بسائر الأنواع الأخرى بالازدواج والتوالد إلى الأجل الذى قدره الله لأمد هذه الحياة .

الإيضاح

(ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون) أى ومن حججه الدالة على أنه القادر على ما يشاء من إنشاء و إفناء ، و إيجاد و إعدام : أن خلقكم من تراب بتغذيتكم إما بلحوم الحيوان وألبانها وأسمانها ، و إما من النّبات ؛ والحيوان غذاؤه النبات ، والنبات من التراب ، فإن النواة لاتصير شجرة إلا بالتراب الذى ينضم إليه أجزاء مائية تجعلها صالحة للتغذية ، ثم بعد إخراجكم منه إذا أنتم بشر تنتشرون فى الأرض ، تتصرفون فيها فى أغراضكم المختلفة ، وأسفاركم البعيدة تكدحون وتجدّون لتحصيل أرزاقكم من فيض ربكم وواسع نعمه عليكم .

(ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة) أى ومن آياته الدالة على البعث والإعادة : أن خلق لكم أزواجا من جنسكم لتأنسوا بها ، وجعل بينكم المودة والرحمة لتدوم الحياة المنزلية على أتم نظام .

ونحو الآية قوله : « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا » .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون) أى إن فيما سلف من خلقكم من تراب وخلق أزواجكم من أنفسكم ، و إبقاء المودة والرحمة ـ لعبرة لمن تأمل فى تضاعيف تلك الأفعال المبنية على الحكم والمصالح ، فهى لم تخلق عبثا ، بل خلقت لأغراض شتى تحتاج إلى الفكر حتى يصل إلى معرفتها ذوو الذكن والعقل الراجح .

وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ (٢٢) وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ (٢٣) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل وجوده بما ذكره فى خلق الإنسان ـ أعقبه بذكر الدلائل فى الأكوان المشاهدة والعوالم المختلفة ، وفى اختلاف ألوان البشر ولغاتهم التى لا حصر لها ، مع كونهم من أب واحد وأصل واحد ، وفيما يشاهد من سباتهم العميق ليلا ، وحركتهم السريعة نهاراً فى السعى على الأرزاق ، والجد والكد فيها .

الإيضاح

(ومن آياته خلق السموات والأرض) أى ومن دلائل وجوده وآيات قدرته : خلقه السموات المزدانة بالكواكب والنجوم الثوابت والسيارة المرتفعة السموك الواسعة الأرجاء، وخلق الأرض ذات الجبال والوديان ، والبحار والقفار ، والحيوان والأشجار.

(واختلاف ألسنتكم وألوانكم) أى واختلاف لغاتكم اختلافا لا حدّ له ، فمن عربية إلى فرنسية ، إلى إنجليزية، إلى هندية، إلى صينية، إلى نحو ذلك مما لا يعلم حصره إلا خالق اللغات ، واختلاف أنواعكم وأشكالكم اختلافا به أمكن التمييز بين الأشخاص فى الأصوات والألوان ، وهذا مما لا غنى عنه فى منازع الحياة ومختلف

أغراضها ، فكثيرا ما تميز الأشخاص بالأصوات ، و بذا نعرف الصديق من العدو ، فنتخذ مايلزم من العُدَّة لكل منهما ، كما نميزها بلغاتها ، فنعرف من أى الأجناس هى .

(إن فى ذلك لآيات للعالمين) أى إن فيما ذكر لدلائل لائحة لأولى العلم الذين يفكرون فيما خلق الله ، فيعلمون أنه لم يخلق الخلق عبثا ، بل خلقه لحكمة بالغة فيها عبرة لمن تذكر .

(ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله) أى ومن علامات قدرته نومكم بالليل واستقراركم فيه ، حتى لاتكون حركة ولاحس ، وسعيكم للأرزاق نهاراً بمزاولة أسباب المعاش ووسائله .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون) أى إن فى فعل الله ذلك لعبراً وأدلة لمن يسمعون مواعظه فيتعظون بها ، و يفهمون حججه عليهم ، على أن صانع ذلك لا يعجزه بعث العالم و إعادته .

وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٤) وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ (٢٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما يعرض للأنفس من الأوصاف ـ ذكر ما يعرض للأكوان والآفاق ونشاهده رأى العين الفَيْنَة بعد الفَيْنَة مما فيه العبرة لمن ادّكر ، ونظر فى العوالم نظرة متأمل معتبر فى بدائع الأكوان ليتوصل إلى معرفة مدبرها وخالقها الذى أحسن كل شىء خلقه ثم هدى .

الإيضاح

(ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا وينزل من السماء ماء فيحيى به الأرض بعد موتها) أى ومن آياته الدالة على عظيم قدرته أنه يريكم البرق فتخافون مما فيه من الصواعق ، وتطمعون فيما يجلبه من المطر الذى ينزل من السماء ، فيحيى الأرض الميتة التى لازرع فيها ولا شجر .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون) أى إن فى ذلك الذى سلف ذكره لبرهانا قاطعا ، ودليلا ساطعا ، على البعث والنشور ، وقيام الساعة ، فإن أرضا هامدة لانبات فيها ولاشجر يحيلها الماء فتهتز وتربو وتنبت من كل زوج بهيج : لهى المثال الواضح ، والدليل اللائح ، على قدرة من أحياها على إحياء العالم بعد موته ، حين يقوم الناس لرب العالمين .

(ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) أى ومن الحجج الدالة على قدرته على ما يشاء قيام السماء والأرض بلا عَمَد ، بل بإقامته وتدبيره ؛ فالأرض تجرى ، والسحاب يجرى حولها ، والهواء تبع لها ، وهى والقمر والسيارات يجرين حول الشمس ، والشمس ولواحقها يجرين حول كواكب أخرى ، لانعلم عنها إلا هذه الآثار العلمية الضئيلة .

وقضارى ذلك : إن إمساك هذه العوالم وإقامتها وتدبيرها وإحكامها من الآيات التى ترشد إلى إله مدبر لها .

(ثم إذا دعاكم دعوة من الأرض إذا أنتم تخرجون) أى ولايزال الأمر هكذا حتى ينتهى أجل الدنيا ، ويختل نظام العالم ، فتبدل الأرض غير الأرض ، وتدك الجبال دكا ، وحينئذ تخرجون من قبوركم سراعا حينما يدعوكم الداعى .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا » وقوله : « فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ . فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ » وقوله : « إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً . فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ » .

وَلَهُ مَنْ فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (٢٦) وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على الوحدانية وهى الأصل الأول ، وعلى القدرة على الحشر ، وهى الأصل الثانى ـ أعقب ذلك ببيانين الآيتين وجعلهما كالنتيجة لما سلف .

الإيضاح

(وله من فى السموات والأرض كلّ له قانتون) أى إن من فى السموات والأرض من خلق الله مطيع له فيما أراد به من حياة أو موت ، من سعادة أوشقاء ، من حركة أو سكون ، إلى أشباه ذلك ، و إن عصاه بقوله أو فعله فيما يكسبه باختياره و يؤثره على غيره .

ثم كرر ذكر البعث والإعادة مرة أخرى لشدة إنكارهم له فقال :

(وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) أى وهو الذى يبدأ الخلق من غير أصل له فينشئه بعد أن لم يكن شيئا ، ثم يفنيه بعد ذلك ، ثم يعيده كما بدأه ، وذلك أسهل عليه على حسب ما يدور فى عقول المخاطبين من أن من فعل شيئا مرة كانت الإعادة أسهل عليه .

والخلاصة : إن الإعادة أسهل على الله من البدء بالنظر لما يفعله البشر مما يقدرون عليه ، فإن إعادة شىء من مادته الأولى أهون عليهم من إيجاده ابتداء ، والمراد بذلك التقريب لعقول الجهلة المنكرين للبعث ، و إلا فكل الممكنات بالنظر إلى قدرته سواء .

وقصارى ذلك : إنه أهون عليه بالإضافة إلى أعمالكم و بالقياس إلى أقداركم .

روى عن أبى هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يقول الله تعالى « كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك ، وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى ، فقوله : لن يعيدنى كما بدأنى ، وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته ، وأما شتمه إياى ، فقوله : اتخذ الله ولداً ، وأنا الأحد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » .

(وله المثل الأعلى فى السموات والأرض) أى وله الوصف البديع فى السموات والأرض ، وهو أنه لا إله إلا هو ليس كمثله شىء تعالى عن الشبيه والنظير .

(وهو العزيز الحكيم) أى وهو العزيز الذى لا يغالَب ولا يُغْلب ، الحكيم فى تدبير خلقه وتصريف شئونه فيما أراد على وفق الحكمة والسداد .

ضَرَبَ لَكُمْ مَثَلاً مِنْ أَنْفُسِكُمْ هَلْ لَكُمْ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ شُرَكَاءَ فِيمَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٢٨) بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ اللهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ (٢٩) .

شرح المفردات

من أنفسكم : أى منتزعا من أحوال أنفسكم التى هى أقرب الأمور إليكم وأعرفها عندكم ، ملكت أيمانكم : أى مماليككم وعبيدكم ، فيما رزقناكم : أى من العقار والمنقول ، فأنتم فيه سواء : أى تتصرفون فيه كتصرفكم ، تخافونهم : أى تخافون أن يستبدوا بالتصرف فيه ، كخيفتكم أنفسكم : أى كما يخاف الأحرار بعضهم من

بعض ، نفصل الآيات : أى نبينها بالتمثيل الكاشف للمعانى ، فمن يهدى من أضل الله ؟ : أى لا أحد يهديهم ، وما لهم من ناصرين : أى ليس لهم من قدرة الله منقذ ولا مجير .

المعنى الجملى

بعد أن بين القدرة على الإعادة بإقامة الأدلة عليها ، ثم ضرب لذلك مثلا ؛ أعقب ذلك بذكر المثل على الوحدانية بعد إقامة الدليل عليها .

الإيضاح

(ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ؟) أى بين الله تعالى إثبات وحدانيته بما يكشفها من ذلك المثل المنتزع من أحوال أنفسكم وأطوارها التى هى أقرب الأمور إليكم ، وبه يستبين مقدار ما أنتم فيه من الضلال بعبادة الأوثان والأصنام ؛ فتسرعون إلى الإقلاع عن عبادة من لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا .

هل أنتم أيها الأحرار تشركون معكم عبيدكم فى أموالكم ، فيساوونكم فى التصرف فيها ؟ لا ، لا يتصرفون فيها إلا بإذنكم خوفا من لائمة تلحقهم منكم ، كما يخاف بعضكم بعضا ، وإذا كنتم لا ترضون بذلك لأنفسكم وأنتم وهم عبيد الله ، فكيف ترضون لرب الأرباب أن تجعلوا عبيده شركاء له ؟ .

وهذا مثل ضربه الله للمشركين به ، العابدين معه غيره ، الجاعلين له شركاء ، وهم معترفون بأن شركاءه من الأصنام والأوثان عبيده وملكه ، إذ كانوا يقولون فى التلبية والدعاء ، حين أداء مناسك الحج : لبيك اللهم لبيك ، لا شريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

وخلاصة المثل : إن أحدكم يأنف أن يساويه عبيده فى التصرف فى أمواله ، فكيف تجعلون لله الأنداد من خلقه ؟ .

(كذلك نفصل الآيات لقوم يعقلون) أى ومثل هذا التفصيل البديع بضرب الأمثال الكاشفة للمعانى المقربة لها إلى العقول ، إذ تنقل المعقول إلى المحسوس التى هى به ألصق ، ولإدراكه أقرب ـ نفصل حججنا وآياتنا لقوم يستعملون عقولهم فى تدبر الأمثال واستخراج مغازيها ومراميها للوصول إلى الأغراض التى لأجلها ضربت ، ولمثلها استعملت ، فيستبين الرشد من الغى والحق من الباطل ، ولأمر ما كثرت الأمثال فى جلاء الحقائق ، وإيضاح ما أشكل منها على الناظرين .

ثم بين أن المشركين إنما عبدوا غيره سفها من أنفسهم وجهلا لا ببرهان قد لاح لهم فقال :

(بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم) أى ولكن الذين ظلموا أنفسهم فكفروا بالله ، اتبعوا أهواءهم جهلا منهم لحق الله عليهم ، فأشركوا الآلهة والأوثان فى عبادته ، ولو قلبوا وجوه الرأى واستعملوا الفكر والتدبر لربما ردهم ذلك إلى معرفة الحق ووصلوا إلى سبيل الرشد ، ولكن أنى لهم ذلك ؟

(فمن يهدى من أضل الله ؟) أى فمن يهدى من خلق الله فيه الضلال وجعله كاسبا له باختياره ، لسوء استعداده وميله بالفطرة إليه وعلم الله فيه ذلك ؟

(وما لهم من ناصرين) أى وليس لهم ناصر ينقذهم من بأس الله وشديد انتقامه إذا حل بهم ، لأنه ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٣٢) .

شرح المفردات

أقم : من أقام العود وقوّمه إذا عدّله ؛ والمراد الإقبال على دين الإسلام والثبات عليه ، حنيفا : من الحنف وهو الميل فهو مائل من الضلالة إلى الاستقامة ، والفطرة : هى الحال التى خلق الله الناس عليها من القابلية للحق والتهيؤ لإدراكه ، وخلق الله : هو فطرته المذكورة أوّلا ، القيم : أى المستوى الذى لاعوج فيه ولا انحراف ، منيبين إليه : أى راجعين إليه بالتوبة وإخلاص العمل ، من قولهم : ناب توبة ونوبا إذا رجع مرة بعد أخرى ، واتقوه : أى خافوه ، فرقوا دينهم : أى اختلفوا فيما يعبدونه على حسب اختلاف أهوائهم ، شيعا : أى فرقا تشايع كل فرقة إمامها الذى مهد لها دينها وقرره ووضع أصوله .

المعنى الجملى

بعد أن عدد سبحانه البينات والأدلة على وحدانيته ، وأثبت الحشر وضرب لذلك المثل ، وسلى رسوله ووطن عزيمته على اليأس من إيمانهم ، لأن الله قد ختم على قلوبهم ، فلا مخلص لهم من ذلك ولا أحد ينقذهم مما هم فيه ، لا أنت ولا غيرك ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ــ أعقب ذلك بأمره بالاهتمام بنفسه وعدم المبالاة بأمرهم وإقامة وجهه لهذا الدين غير ملتفت عنه يمنة ولا يسرة ، فهو فطرة الله التى خلق العقول معترفة بها .

الإيضاح

(فأقم وجهك للدين حنيفا) أى فسدّد وجهك نحو الوجه الذى وجهك إليه ربك لطاعته ، وهو الدين القيم دين الفطرة ، ومِلْ عن الضلال إلى الهدى .

(فطرة الله التى فطر الناس عليها) أى الزموا خلقة الله التى خلق الناس عليها ، فقد جعلهم بفطرتهم جانحين للتوحيد وموقنين به ، لكونه موافقا لما يهدى إليه

العقل ويرشد إليه صحيح النظر كما ورد فى الحـــديث الذى رواه البخارى ومسلم : « كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه هما اللذان يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تُنْتَج البهيمة جمعاء » (مستوية لم يذهب من بدنهـا شىء) هل تحسون فيها من جدعاء » (مقطوعة الأذن أو الأنف) .

ثم علل وجوب الامتثال بقوله :

(لاتبديل لخلق الله) أى لاينبغى أن تبدّل فطرة الله أو تغير ، وهـذا خبر فى معنى النهى كأنه قيل : لاتبدلوا دين الله بالشرك .

بيان هذا أن العقل الإنسانى كصحيفة بيضاء قابلة لنقش ما يراد أن يكتب فيها كالأرض تقبل كل ما يغرس فيها ، فهى تنبت حنظلا وفاكهة ، ودواء وسَمًّا ، والنفس ترد عليها الديانات والمعارف فتقبلها ، والخير أغلب عليها من الشر ، كما أن أغلب نبات الأرض يصلح للرعى والقليل منه سَمٌّ لاينتفع به ، ولا تغير بالآراء الفاسدة إلا بمعلم يعلمها ذلك كالأبوين اليهوديين أو النصرانيين ، ولو ترك الطفل وشأنه لعرف أن الإله واحد ولم يسقه عقله إلى غير ذلك ، فإن البهيمة لاتجدع إلا بمن يجدعها من الخارج ، هكذا صحيفة العقل لاتغير إلا بمؤثر خارجى يضلها بعد علم .

(ذلك الدين القيم) أى ذلك الذى أمرتكم به من التوحيد هو الدين الحق الذى لا عوج فيه ولا انحراف .

(ولـكن أكثر الناس لايعلمون) ذلك لعدم تدبرهم فى البراهين الواضحة الدالة عليه ، ولو علموا ذلك حق العلم لاتبعوه وما صدوا الناس عن الاقتباس من نوره ، وما سدلوا الحجب التى تحجب عنهم ضياءه .

(منيبين إليه واتقوه) أى فأقم وجيك أيها الرسول أنت ومن اتبعك حنفاء لله منيبين إليه ، وخافوه ، وراقبوا أن تفرطوا فى طاعته وترتكبوا معصيته .

(وأقيموا الصلاة) أى وداوموا على إقامتها ، فهى عمود الدين ، وهى التى تذكّر المؤمن ربه ، وتجعله يناجيه فى اليوم خمس مرات ، وتحول بينه وبين الفحشاء

والمنكر ، لأنها تعوّد النفس الخضوع والإخبات إليه ، ومراقبته فى السر والعلن ، كما جاء فى الحديث : « اعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(ولاتكونوا من المشركين) به غيره ، بل أخلصوا له العبادة ولاتريدوا بها سواه ، وحافظوا على امتثال أوامره واجتناب نواهيه .

ثم بين صفات هؤلاء المشركين بقوله :

(من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا) أى من المشركين الذين بدلوا دين الفطرة وغيّروه ، وكانوا فى ذلك فرقا مختلفة كلها جانبت الحق ، وركنت إلى الباطل ، كاليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأوثان ، وسائر الأديان الباطلة .

والخلاصة : إن أهل الأديان قبلنا اختلفوا فيما بينهم على مذاهب ونحل باطلة ، كل منها تزعم أنها على شىء .

(كل حزب بما لديهم فرحون) أى كل طائفة من هؤلاء الذين فارقوا دينهم الحق ، وأحدثوا من البدع ما أحدثوا فرحون بما هم به مستمسكون ، ويحسبون أن الصواب لايعدوهم إلى غيرهم من النحل والمذاهب الأخرى .

وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٣٣) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٣٤) أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ (٣٥) وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُوا بِهَا وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ (٣٦) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٣٧) .

المعنى الجملى

لما أرشد إلى التوحيد وأقام الأدلة عليه ، وضرب له المثل ؛ أعقبه بذكر حال للمشركين يعرفون بها ، وسيماء لاينكرونها ، وهى أنهم حين الشدّة يتضرعون إلى ربهم ، وينيبون إليه ، فإذا خلصوا منها رجعوا إلى شِنْشِنتهم الأولى ، وأشركوا به الأوثان والأصنام ، فليضلوا ماشاءوا ، فإن لهم يوما يرجعون فيه إلى ربهم ، فيحاسبهم على مااجترحوا من السيئات ، وليتهم اتبعوا ذلك عن دليل ، حتى يكون لهم شبه العذر فيما يفعلون ، بل هو الهوى المطاع ، والرأى المتبع ، ثم ذكر حال طائفة من المشركين دون سابقيهم ، وهم من تكون عبادتهم لله رهن إصابتهم من الدنيا ، فإن آتاهم ربهم منها رضوا ، وإذا منعوا منها سخطوا وقنطوا ، وقد كان عليهم أن يعلموا أن بسط النعمة وإقتارها بيد الله ، وقد جعل لذلك أسبابا متى سلكها فاعلها وصل إلى ما يريد ، وليس علينا إلا أن تطمئن نفوسنا إلى مايكون ، فكله بقدر الله وقضائه ، وعلينا أن نستسلم له ونعمل ما طلب إلينا عمله من الأخذ فى الأسباب والجد فى العمل جهد الطاقة .

الإيضاح

(وإذا مس الناس ضرّ دعوا ربهم منيبين إليه) أى وإذا مس هؤلاء المشركين الذين يجعلون مع الله إلها آخر ـ ضر فأصابهم جدْب وقحط أخلصوا لربهم التوحيد وأفردوه بالتضرع إليه واستغاثوا به منيبين إليه تائبين إليه من شركهم وكفرهم .

(ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا فريق منهم بربهم يشركون) أى ثم إذا كشف ربهم عنهم ذلك الضر وفرجه عنهم ، وأصابهم برخاء وخصب وسعة ، إذا جماعة منهم يشركون به ، فيعبدون معه الآلهة والأوثان .

والخلاصة : إنهم حين الضرر يدعون الله وحده لاشريك له ، وإذا أسبغ عليهم

نعمه إذا فريق منهم يشركون به سواه و يعبدون معه غيره .

ثم أمرهم أمر تهديد كما يقول السيد لعبده متوعدا إذا رآه قد خالف أمره : اعصنى ما شئت .

(ليكفروا بما آتيناهم) أى فليجحدوا نعمى عليهم و إحسانى إليهم كيف شاءوا ، فإن لهم يوما نحاسبهم فيه ، يوم يؤخذون بالنواصى ، و يجرّون بالسلاسل والأغلال ، و يقال لهم : ذوقوا ما كنتم تعملون .

وهكذا الأمر بعده مسوق لمثل ذلك وهو :

(فتمتعوا) أى فتمتعوا بما آتيناكم من الرخاء ، وسعة النعمة فى الدنيا ، فما هي إلا أوقات قصيرة تمضى كلمح البصر .

ثم هددهم أشد التهديد بقوله :

(فسوف تعلمون) إذا وردتم على ما يصيبكم من شديد عذابى ، وعظيم عقابى على كفركم بى فى الدنيا .

روى عن بعض السلف أنه قال : والله لو توعدنى حارس درب لخفت فيه ، فكيف والمتوعد هو الله الذى يقول للشىء كن فيكون ؟

ثم أنكر على المشركين ما اختلقوه من عبادة غيره بلادليل ، فقال :

(أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون) أى أأنزلنا على هؤلاء الذين يشركون فى عبادتنا الآلهة والأوثان كتابا بتصديق ما يقولون ، ويرشد إلى حقيقة ما يدّعون .

و إجمال القصد : إنه لم يُنزِّل بما يقولون كتابا ولا أرسل به رسولا ، و إنما هو شىء افتعلوه اتباعا لأهوائهم .

ثم ذكر طبيعة الإنسان وجبلّته إلا من عصمه الله فقال :

(و إذا أذقنا الناس رحمة فرحوا بها و إن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم إذا هم

يقنطون) أى إن الإنسان قد ركب الله فى طبيعته الفرح والبطر حين تصيبه النعمة ، كما حكى الله عنه: «لَيَقُولَنَّ ذَهَبَ السَّيِّئَاتُ عَنِّي إِنَّهُ لَفَرِحٌ فَخُورٌ»، و إذا أصابته شدة بجهله بسنن الحياة وعصيانه أوامر الدين قنط من رحمة الله وأيس منها ، فهو كما قيل :

كحمار السوء إن أعلفته رَمَحَ الناس و إن جاع نهق

« إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ » فإنهم راضون بما قسمه لهم ربهم من خير أو شر ، علما منهم أن الله حكيم ، لايفعل إلا ما فيه خير للعبد ، وفى الحديث الصحيح : « عجبا للمؤمن لايقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، و إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

ثم أنكر عليهم ما يلحقهم من اليأس والقنوط لدى الضراء ، فقال :

(أو لم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر ؟) أى ألم يشاهدوا و يعلموا أن الأمرين من الله ، فما بالهم لم يشكروا فى السراء ، و يحتسبوا فى الضراء ، كما يفعل المؤمنون ، فإن من فطر هذا العالم لاينزل الشدة بعباده إلا ليعود عليهم بالخير كالتأديب والتذكير والامتحان ، فهو كما يربى عباده بالرحمة يربيهم بالتعذيب ؛ فلو أنهم شكروه حين السراء وتضرعوا إليه فى الضراء لكان خيرا لهم .

والخلاصة : إنه يجب عليهم أن ينيبوا إليه فى الرخاء والشدة ، ولايعوقهم عن الإنابة إليه نعمة تبطرهم ، ولاشدة تحدث فى قلوبهم اليأس ، بل يكونون فى السراء والضراء منيبين إليه .

(إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون) أى إن فى ذلك البسط على من بسط له ، والقدر على من قدر عليه لدلالة واضحة لمن صدّق بحجج الله إذا عاينها .

فَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ ذَلِكَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٣٨) وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُوا عِنْدَ اللهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ

اللهِ فَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ (٣٩) اللهُ الَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذٰلِكُمْ مِنْ شَىْءٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٠) .

شرح المفردات

حقه : هو صلة الرحم والبر بالقريب ، والمسكين : هو المعدم الذى لامال له ، وابن السبيل : هو المسافر الذى احتاج إلى مال وعزّ عليه إحضاره من بلده ، ووسائل المواصلات الحديثة الآن تدفع مثل هذه الحاجة ، ربا : أى زيادة ، والمراد بها الهدية التى يتوقع بها مزيد مكافأة ، فلا يربو عند الله : أى فلا يبارك فيه ، والمراد بالزكاة الصدقة ، المضعفون : أى الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أنه يبسط الرزق لمن يشاء و يقدر ـ أردف ذلك ببيان أنه يجب الإحسان على ذوى القربى وذوى الحاجات من المساكين وأبناء السبيل ، فإن الله إذا بسط الرزق لم ينقصه الإنفاق ، و إذا قدر لم يزده بالإمساك :

إذا جاءت الدنيا فجُدْ بها على الناس طُرًّا إنها تتقلب
فلا الجود يفنيها إذا هى أقبلت ولا البخل يبقيها إذا هى تذهب

الإيضاح

(فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) أى أعط أيها الرسول ومن تبعك من المؤمنين : الأقارب الفقراء جزءا من مالك صلة للرحم و براً بهم ، لأنهم أحق الناس بالشفقة ؛ ومن ثم حكى عن أبى حنيفة أنه استدل بهذه الآية على وجوب النفقة على كل ذى رحم محرم ذكرا كان أو أنثى إذا كان فقيراً عاجزاً عن الكسب .

وكذا المسكين الذى لا مال له إذا وقع فى ورطة الحاجة ، فيجب على من عنده مقدرة دفعُ حاجته ، وسدّ عَوَزه .

ومثله المسافر البعيد عن ماله، الذى لا يستطيع إحضار شىء منه لانقطاع السبل به فيجب مساعدته بما يدفع خصاصته ، حتى يصل إلى مأمنه ، وسرعة طرق المواصلات الآن تدفع هذه الضرورة .

(ذلك خير للذين يريدون وجه الله وأولئك هم المفلحون) أى ذلك الإعطاء لمن تقدم ذكرهم ، من فعل الخير الذى يتقبله الله ، ويرضى عن فاعليه ، ويعطيهم جزيل الثواب ، وأولئك قد ربحوا فى صفقتهم ، فأعْطَوْا مايفنى ، وحصلوا على ما يبقى من النعيم المقيم ، والخير العميم .

وإنما كان هذا العمل خيراً لما فيه من تكافل الأسرة الخاصة وتعاونها فى السراء والضراء، وتعاون الأسرة العامة ، وهى الأمة الإسلامية جمعاء ، كما جاء فى الحديث : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضه بعضا » .

ولايخفى ما لذلك من أثر فى تولد المحبة والمودة ، وفى التكاتف لدفع عوادى الأيام ومحن الزمان .

(وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) أى ومن أهدى هدية يريد أن تردّ بأكثر منها ، فلا ثواب له عند الله ، وقد حرم الله ذلك على رسوله صلى الله عليه وسلم على الخصوص ، كما قال تعالى : « وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ » أى ولاتعط العطاء تريد أكثر منه .

روى عن ابن عباس أنه قال : الربا ربوان : ربا لايصح وهو ربا البيع ، وربا لابأس به ، وهو هدية الرجل يريد فضلها وإضعافها ، ثم تلا هذه الآية .

وقال عكرمة : الربا ربوان : ربا حلال ، وربا حرام ؛ فأما الربا الحلال : فهو الذى يُهْدِى ، يَلتمس ما هو أفضل منه ؛ وعن الضحاك فى هذه الآية : هو الربا

الحلال الذى يُهْدِى ، ليثاب ما هو أفضل منه ، لاله ولاعليه ، ليس له أجر ، وليس عليه فيه إثم .

(وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون) أى ومن أعطوا صدقة يبتغون بها وجه الله تعالى خالصا ، فأولئك من الذين يضاعف الله لهم الثواب والجزاء ، كما قال تعالى : « مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ؟ » ، وجاء فى الصحيح أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «وماتصدّق أحد بعدْل تمرة من كسب طيب إلا أخذها الرحمن بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فُلُوّه أو فصيله حتى تصير التمرة أعظم من أحد (جبل) » .

ولما بين أنه لازيادة إلا فيما يزيده ولاخير إلا فيما يختاره أكد ذلك بقوله :

(الله الذى خلقكم ثم رزقكم ثم يميتكم ثم يحييكم) أى الله الذى لاتصح العبادة إلا له ، ولاينبغى أن تكون لغيره ، هو الذى خلقكم ولم تكونوا شيئاً ، ثم رزقكم ما به تقوم شئونكم فى هذه الحياة ، ثم يقبض أرواحكم فى الدنيا ، ثم يحييكم يوم القيامة للبعث .

ثم وبخ هؤلاء المشركين الذين يعبدون الآلهة والأصنام ، التى لاتخلق ولا ترزق ولا تحيى ولا تميت بقوله :

(هل من شركائكم من يفعل من ذلكم من شىء ؟) أى هل من آلهتكم وأوثانكم الذين جعلتموهم شركاء لله فى العبادة من يخلق أو يرزق أو يُنْشِر الميت يوم القيامة ؟ .

وإجمال المعنى : إن شركاءكم لايفعلون شيئا من ذلك ، فكيف يُعبدون من دون الله ؟.

ثم برأ سبحانه نفسه عن هذه الفرية التى افتروها ، فقال :

(سبحانه وتعالى عما يشركون) أى تنزه عن الشريك ، فهو الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد .

ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٤١) قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ (٤٢)

شرح المفردات

البر : القيافى والقفار ، ومواضع القبائل ، والبحر : المدن ، والعرب تسمى الأمصار بحاراً لسعتها ؛ كما قال سعد بن عُبادة فى عبد الله بن أبىّ بن سَلول : ولقد أجمع أهل هذه البُحَيرة (المدينة) ليتوّجوه .

وقال ابن عباس : البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر ، والبحر ما كان على شط نهر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين عبدوا مع الله سواه ، وأشركوا به غيره ، والشرك سبب الفساد ، كما يرشد إلى ذلك قوله : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » — أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمات الله واجترحوا المعاصى ، وفشا بينهم الظلم والطمع ، وأكل القوى مال الضعيف ، فصب عليهم ربك سوط عذابه ، فكثرت الحروب وافتنّ الناس فى أدوات التدمير والإهلاك ، فمن غائصات فى البحار تهلك السفن الماخرة فيها ، إلى طائرات قاذفات للحَمَم والمواد المحرقة ، إلى مدافع تحصد الناس حصدا ، إلى دبابات سميكة الدروع تهد المدن هدا ؛ وما الحرب القائمة

الآن إلا مثال الوحشية الإنسانية ، والمجازر البشرية التي سلط الله فيها العالم بعضه على بعض ، فارتكب المظالم ، واجترح المآثم ، والإنسان فى كل عصر هو الإنسان .

وكما أهلك الله الكافرين قبلهم بكفرهم وظلمهم ، يهلك الناس بشؤم معاصيهم وفسادهم ، فليجعلوا من سبقهم مثلا لهم ، ليتذكروا عقاب الله وشديد عذابه للمكذبين .

الإيضاح

(ظهر الفساد فى البر والبحر بما كسبت أيدى الناس ليذيقهم بعض الذى عملوا لعلهم يرجعون) أى ظهر الفساد فى العالم بالحروب والغارات ، والجيوش والطائرات ، والسفن الحربية والغواصات ، بما كسبت أيدى الناس من الظلم وكثرة المطامع ، وانتهاك الحرمات ، وعدم مراقبة الخلاق ، وطرح الأديان وراء ظهورهم ، ونسيان يوم الحساب ، وأطلقت النفوس من عقالها ، وعاثت فى الأرض فساداً ، إذ لا رقيب من وازع نفسى ، ولا حسيب من دين يدفع عاديتها ، ويمنع أذاها ، فأذاقهم الله جزاء بعض ما عملوا من المعاصى والآثام لعلهم يرجعون عن غيهم ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويتذكرون أن هناك يوما يحاسب الناس فيه على أعمالهم إن خيراً فخير ، وإن شرا فشر ، فيخيم العدل على المجتمع البشرى ، ويشفق القوى على الضعيف ، ويكون الناس سواسية فى المرافق العامة ، وحاج المجتمع بقدر الطاقة البشرية .

وبعد أن بين أن ظهور الفساد كان نتيجة أفعالهم أرشدهم إلى أن من كان قبلهم وكانت أفعالهم كأفعالهم ، فأصابهم بعذاب من عنده ، وصاروا مُثُلًا لمن جاء بعدهم ، عبرة لمن خلفهم ، قال :

(قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك : سيروا فى البلاد فانظروا إلى مساكن الذين كفروا بالله من قبلكم وكذبوا رسله ، كيف أهلكناهم بعذاب منا ، وجعلناهم عبرة لمن بعدهم ؟.

ثم بين سبب ما حاق بهم من العذاب ، فقال :

(كان أكثرهم مشركين) فما حل بهم من العذاب كان جزاء وفاقا لكفرهم بآيات ربهم ، وتكذيبهم رسله .

فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ (٤٣) مَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنْفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ (٤٤) لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ (٤٥) .

شرح المفردات

لامرد له : أى لايقدر أحد أن يرده ، يصدعون: أى يتصدعون ويتفرقون ، كما قال متمم بن نويرة من قصيدة يرثى بها أخاه مالكا :

وكنا كندمانَىْ جَذِيمة حِقْبَةً من الدهر حتى قيل لن يتصدعا (١)

فأصبحنا كأنى ومالكا لطول اجتماع لم نبت ليلة معا

يمهدون : من مهد فراشه إذا وطأه ، حتى لايصيبه ماينغص عليه مرقده من بعض ما يؤذيه ، وتمهيد الأمور تسويتها وإصلاحها ، وتمهيد العذر بسطه وقبوله ، لايحب الكافرين : أى إنه يبغضهم ، وسيعاقبهم على ما فعلوا .

---

(١) وجذيمة : هوجذيمة الأبرش ، وكان ملكا فى الحيرة ، ونديماه مالك وعقيل ، وبهما يضرب المثل فى طول المنادمة ، فقد نادماه أربعين سنة ما أعادا عليه حديثا كان قالاه من قبل .

المعنى الجملى

بعد أن نهى الكافر عن بقائه على حاله التى هو عليها خيفة أن يحل به سوء العذاب ـ أردف ذلك بأمر رسوله ومن تبعه بالثبات على ماهم عليه ، بعبادتهم الواحد الأحد ، قبل أن يأتى يوم الحساب ، الذى يتفرق فيه العباد ، فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير ، فمن كفر فعليه وبال كفره ، ومن عمل صالحا فقد أعد لنفسه مهاداً يستريح عليه بما قدم من صالح العمل ، وسينال من فضل ربه وثوابه ورضاه عنه ما لايخطر له ببال ، ولا يدور له فى حسبان .

والكافر سيلقى فى هذا اليوم العذاب والنكال ، لأن ربه يبغضه ويمقته جزاء ما دسى به نفسه من سىء العمل .

الإيضاح

(فأقم وجهك للدين القيم من قبل أن يأتى يوم لامردّ له) أى فاسلك أيها الرسول الكريم الطريق الذى رسمه لك ربك بطاعته ، واتباع نهجه القويم ، الذى لاعوج فيه ولا أمْتَ ، من قبل أن يجىء ذلك اليوم الذى لاراد له ، وهو يوم الحساب الذى كتب الله مجيئه وقدّره ، وما قدّر لابد أن يكون .

ثم ذكر حال الناس يومئذ ، فقال :

(يومئذ يصدعون) أى يومئذ يتفرق الناس على حسب أعمالهم ، ففريق فى الجنة يؤتى ثمرة عمله ، وفريق يزْجى إلى النار بما اجترح من الآثام ، وبما ران على قلبه مما كسبت يداه .

ثم بين أن ما ناله كل منهما من الجزاء كان نتيجة حتمية لعمله فقال :

(من كفر فعليه كفره ومن عمل صالحا فلأنفسهم يمهدون) أى من كفر بالله ودسّى نفسه بما عمل من السيئات ، واجترح من الآثام ، فعليه وحده أوزار جحوده

وكفره بنعم ربه ، ومن عمل الصالحات وأطاع الله فيما به أمر وعنه نهى ، فقد أعد لنفسه العُدّة ، ووطأ لنفسه الفراش حتى لايقضّ عليه مضجعه ، ويقع فى عذاب السعير .

ثم بين العلة فى تفرقهم ، فقال :

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات من فضله) أى إنهم يتفرقون ليجازى المؤمنين بالحسنى من فضله ، فيكافئ الحسنة بعشر أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ، إلى ما شاء الله من المنح والعطايا .

وذكر جزاء الكافرين بما يدل عليه قوله :

(إنه لايحب الكافرين) أى إنه يبغضهم ، وذلك يستدعى عقابهم ، ولايخفى ما فى ذلك من تهديد ووعيد .

وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٤٦) .

المعنى الجملى

لما ذكر أن الفساد ظهر بسبب الشرك والمعاصى نبههم إلى دلائل وحدانيته بما يشاهدونه أمامهم من إرسال الرياح بالأمطار ، وجرى الفلك حاملة لأنواع الثمار ، مما فيه غذاؤكم ، وقوت أنعامكم .

الإيضاح

(ومن آياته أن يرسل الرياح مبشرات وليذيقكم من رحمته ولتجرى الفلك بأمره ولتبتغوا من فضله) أى ومن الأدلة على وحدانيته ، والحجج القائمة على أنه رب كل شىء ، أن يرسل الرياح من حين إلى آخر مبشرات بالغيث الذى به تحيا

الأرض ويُنبت الثمر والزرع ، فتأكلون منه مالذ وطاب ، وتعيشون أنتم ودوابكم وأنعامكم فضلا من ربكم ، ولتجرى السفن ماخرة للبحار ، حاملة للأقوات وأنواع الثمار ، متنقلة من قطر إلى قطر ، فيؤتى بما فى أقصى المعمور من الشرق إلى أقصاه فى الغرب ، والعكس بالعكس ، فلا تُحْتَجَن الثمرات والأقوات فى أماكنها وتكون وقفاً على قوم بأعيانهم .

(ولعلكم تشكرون) أى وليعدكم لشكره كفاء ما أسدى إليكم من نعمه الوفيرة ، وخيراته العميمة ، التى لاتحصون قدرها ، كما قال : « وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا » .

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلاً إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ (٤٧) .

المعنى الجملى

لما ذكر سبحانه البراهين الساطعة الدالة على الوحدانية والبعث والنشور ، ولم يرعو بها المشركون ، بل لجوا فى طغيانهم يعمهون ، سلى رسوله صلى الله عليه وسلم فذكر له انك لست أول من كُذِّبَ ، فكثير ممن قبلك جاءوا أقوامهم بالبينات ، فلم تغنهم الآيات والنذر ، فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر ، ونصرنا رسلنا ومن آمن بهم ، فلا تبتئس بما كانوا يعملون ، ولنجزينّ عليك وعلى قومك سننا ، ولننتقمنّ منهم ، ولننصرنّك عليهم ، فالعاقبة للمتقين .

الإيضاح

(ولقد أرسلنا من قبلك رسلا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) أى ولقد أرسلنا أيها الرسول رسلا من قبلك

إلى أقوامهم الكافرين ، كما أرسلناك إلى قومك عابدى الأوثان من دون الله ، فجاءوهم بالحجج الواضحة على أنهم من عند الله ، فكذبوهم كما كذبك قومك ، وردوا عليهم ما جاءوهم به من عنده ، كما ردوا عليك ما جئتهم به ، فانتقمنا من الذين اجترحوا الآثام ، واكتسبوا السيئات من أقوامهم ، ونجينا الذين آمنوا بالله وصدقوا رسله ، ونحن فاعلو ذلك بمجرمى قومك ، وبمن آمن بك ، سنة الله التى شرعها لعباده ولن تجد لسنة الله تبديلا .

وهذا إخبار من الله سبحانه بأن نصره لعباده المؤمنين حق عليه ، وهو صادق الوعد لايخلف الميعاد . أخرج الطبرانى وابن أبى حاتم وابن مردويه والترمذى عن أبى الدرداء قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « مامن مسلم يردّ عن عرض أخيه إلا كان حقا على الله أن يرد عنه نار جهنم يوم القيامة » ثم تلا : « وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ » .

ولا يخفى ما فى هذا من الوعد والبشارة بالظفر على أعدائه ، والوعيد والنكال ، والخسران فى المآل ، لمن كذب به من قومه .

اللهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (٤٨) وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ (٤٩) فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَةِ اللهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ (٥٠) وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا مِنْ بَعْدِهِ يَكْفُرُونَ (٥١) .

شرح المفردات

تثير : أى تحرك ، يبسط : أى ينشر ، فى السماء : أى فى سمتها وجهتها ، كسفا : أى قطعا ، والودق : المطر ، خلاله : واحدها خَلل ، وهو الفرجة بين الشيئين ، لمبلسين : أى لآيسين .

المعنى الجملى

عود على بدء ، بعد أن سلى رسوله صلى الله عليه وسلم على ما يلاقيه من أذى قومه ببيان أنه ليس ببدع فى الرسل ، فكائن من رسول قبله قد كذِّب ، ثم دالت الدولة على المكذبين ، ونصر الله رسوله والمؤمنين ، أعاد الكرة مرة أخرى ، فأتبع البرهان بالبرهان لإثبات الوحدانية ، وإمكان البعث والنشور بما يشاهد من الأدلة فى الآفاق مرشدة إلى قدرته ، وعظيم رحمته ، ثم بما يرى فى الأرض الموات من إحيائها بالمطر ، وهو دليل لائح يشاهدونه ، ولا يغيب عنهم الحين بعد الحين ، والفَيْئة بعد الفَيْئة ، أفليس فى هذا معتبر لمن اعتبر وادّكر ؟ .

الإيضاح

(الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون) أى الله الذى يرسل الرياح ، فتنشئ سحابا فينشره ويجمعه جهة السماء تارة سائراً ، وأخرى واقفا ، وحينا قطعا ، فترى المطر يخرج من وسطه ؛ فإذا أصاب به بعض عباده فرحوا به لحاجتهم إليه .

(وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين) أى وقد كانوا من قبل أن ينزل عليهم المطر قانطين يائسين من نزوله ، فلما جاءهم على فاقة وحاجة وقع منهم موقعا عظيما .

والخلاصة : إنهم كانوا محتاجين إليه قبل نزوله ، ومن قبل ذلك أيضا إذ هم ترقبوه فى إبّانه فتأخر ، ثم مضت فترة فترقبوه فيها فتأخر ، ثم جاء بغتة بعد اليأس والقنوط ، و بعد أن كانت أرضهم هامدة أصبحت وقد اهتزت ورَبَت وأنبتت من كل زوج بهيج .

(فانظر إلى آثار رحمة الله كيف يحيي الأرض بعد موتها) أى فانظر أيها الرسول أثر الغيث الذى أصاب به ماأصاب من النبات والأشجار والثمار ، وفيه الدليل الكافى على عظيم القدرة وواسع الرحمة .

و إذ قد ثبتت قدرته على إحياء الميت من الأرض بالغيث ثبتت قدرته على إحياء الأجسام بعد موتها وتفرقها وتمزقها إرْبًا إرْبًا ، ومن ثم قال :

(إن ذلك لمحيي الموتى) أى إن ذلك الذى قدر على إحياء الأرض قادر على إحياء الأجسام من البعث .

ثم أكد هذا بقوله :

(وهو على كل شىء قدير) فلا يعجزه شىء ، فإحياؤكم من قبوركم هين عليه ، كما قال : « قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

ثم ذمهم على تزلزلهم وسوء اضطرابهم ، فإذا أصابهم الخير فرحوا به ، و إن أصابهم السوء يئسوا وأبلسوا ، وانقطع رجاؤهم من الخير ، فقال :

(ولئن أرسلنا ريحا فرأوه مصفرا لظلوا من بعده يكفرون) أى ولئن أرسلنا ريحا حارة أو باردة على الزرع الذى زرعوه ونما واستوى على سوقه ، فرأوه قد اصفر بعد خضرته ونضرته — لظلّوا من بعد ذلك الاستبشار والرجاء يجحدون نعم الله السابقة عليهم .

ولايخفى مافى ذلك من المبالغة فى احتقارهم لتزلزلهم فى عقيدتهم ، إذ كان الواجب

عليهم أن يتوكلوا على الله فى كل حال ، ويلجئوا إليه بالاستغفار إذا احتبس عنهم المطر ، ولا ييأسوا من روح الله ، ويبادروا إلى الشكر بالطاعة إذا أصابهم جل وعلا برحمته ، وأن يصبروا على بلائه إذا اعترى زرعهم آفة ولا يكفروا بنعمائه ، لكنهم قد عكسوا الأمر ، وأبوا مايجديهم ، وأتوا بما يؤذيهم .

فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ (٥٢) وَمَا أَنْتَ بِهَادِ الْعُمْيِ عَنْ ضَلَالَتِهِمْ إِنْ تُسْمِعُ إِلَّا مَنْ يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ مُسْلِمُونَ (٥٣) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه صنوف الأدلة ، ثم ضرب المثل على توحيده ووجوب إرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، وصحة بعث الأجسام يوم القيامة ، ووعد وأوعد بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد ، ثم مازادهم دعاؤه إلا إعراضا ، ولا تكرار النصح إلا إصراراً وعناداً ـ أردف هذا بتسليته عمايراه من التمادى فى الإعراض ، وكثرة العناد واللجاج ، فأبان أن هؤلاء كأنهم موتى ، فأنّى لك أن تسمعهم ، وكأنهم صم ، فكيف يسمعون دعاءك حتى يستجيبوا لك ؟ إنما الذى يستجيب من يؤمن بآيات الله ، فإذا سمع كتابه تدبره وفهمه ، فيخضع لك بطاعته ويتذلل لمواعظ كتابه .

الإيضاح

(فإنك لاتسمع الموتى ولاتسمع الصم الدعاء إذا ولّوا مدبرين) أى إنك لاتقدر أن تفهم هؤلاء المشركين الذين قد ختم الله على أسماعهم ، فسلبهم فهم مايتلى عليهم من مواعظ تنزيله ؛ كما لاتقدر أن تفهم الموتى الذين سلبهم الله أسماعهم بأن تجعل لهم

أسماعا ، ولاتقدر أن توفق هؤلاء الذين قد سلبهم الله فهم آيات كتابه لسماعها وفهمها ، كما لاتقدر أن تسمع الصم الذين قدسلبوا السمع ـ الدعاء إذا ولوا عنك مدبرين .

ثم بين أن الهداية والضلالة بيد الله لابيد الرسول ، فقال :

(وما أنت بهاد العمى عن ضلالتهم) أى ليس فى طوقك أن تهدى من أضله الله ، فترده عن ضلالته ، بل ذلك إليه وحده ، فإنه يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، وليس ذلك لأحد سواه .

والخلاصة : إن هذا ليس عملك ، وما بعثت لأجله .

ثم أكد ماسلف بقوله :

(إن تسمع إلامن يؤمن بآياتنا فهم مسلمون) أى لاتسمع السماع الذى ينتفع به سامعه فيتبعه ، إلا من يؤمن بآياتنا ، لأنه هو الذى إذا سمع كتاب الله تدبره وفهمه ، وعمل بما فيه ، وانتهى إلى حدوده التى حدها فيه ، فهو مستسلم خاضع له ، مطيع لأوامره ، تارك لنواهيه .

اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر دلائل الآفاق على وحدانيته أردفها بدلائل الأنفس ، فذكر خلق الآدمى ، وأطواره المختلفة من ضعف إلى قوة ، ثم انتكاسه وتغيير حاله من قوة إلى ضعف ، ثم إلى شيخوخة وهرم .

الإيضاح

(الله الذى خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة) يقول سبحانه محتجا على المشركين المنكرين للبعث : إن الذى خلقكم من نطفة وماء مهين ، فأنشأكم بشرا سويا ، ثم جعل لكم قوة على التصرف من بعد ضعف الصغر والطفولة ، ثم أحدث لكم الضعف بالهرم والكبر ، بعد أن كنتم أقوياء فى شبابكم — قادر أن يعيدكم مرة أخرى بعد البلى ، و بعد أن تكونوا عظاما نخرة .

والخلاصة : إن تنقل الإنسان فى أطوار الخلق حالا بعد حال من ضعف إلى قوة ، ثم من قوة إلى ضعف — دليل على قدرة الخالق الفعّال لما يشاء ، الذى لايعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، ولايعجزه أن يعيدكم كرة أخرى .

(يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) أى يخلق مايشاء من ضعف وقوة ، وشباب وشيب ؛ وهو العليم بتدبير خلقه ، القدير على مايشاء ، لايمتنع عليه شىء أراده ، وهو كما يفعل هذا قادر على أن يميت خلقه ويحييهم إذا شاء .

وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ (٥٥) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ (٥٦) فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٥٧) .

شرح المفردات

الساعة الأولى : يوم القيامة ؛ سميت بذلك لأنها تقوم فى آخر ساعة من ساعات الدنيا ، ما لبثوا : أى ما أقاموا بعد الموت ، غير ساعة : أى غير قطعة قليلة من الزمان ؛

يؤفكون : أى يصرفون عن الحق ، المعذرة : العذر ، يستعتبون : أى يطلب منهم إزالة عتب الله وغضبه عليهم بالتوبة والطاعة ، فإنه قد حق عليهم العذاب ، يقال : استعتبنى فلان فأعتبته : أى استرضانى فأرضيته .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف بدء النشأة الأولى ، وذكر الإعادة والبعث ، وأقام عليه الأدلة فى شتى السور ؛ وضرب له الأمثال ـ أردف ذلك بذكر أحوال البعث وما يجرى فيه من الأفعال والأقوال من الأشقياء والسعداء ليكون فى ذلك عبرة لمن يذكر .

الإيضاح

(ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة) أى ويوم تجىء ساعة البعث فيبعث الله الخلق من قبورهم ، يقسم المجرمون الذين كانوا يكفرون بالله فى الدنيا ويكتسبون فيها الآثام ، إنهم ما أقاموا فى قبورهم إلا قليلا من الزمان ، وهذا استقلال منهم لمدة لبثهم فى البرزخ على طولها ، وهم قد ضربوا فى الآخرة عن معرفة مدة مكثهم فى ذلك الحين .

(كذلك كانوا يؤفكون) أى كذبوا فى قولهم ما لبثنا غير ساعة ، كما كانوا فى الدنيا يحلفون على الكذب وهم يعلمون . والكلام مسوق للتعجب من اغترارهم بزينة الدنيا وزخرفها ، وتحقير ما يتمتعون به من مباهجها ولذاتها ، كى يقلعوا عن العناد ويرجعوا إلى سبل الرشاد ، وكأنه قيل : مثل ذلك الكذب العجيب كانوا يكذبون فى الدنيا اغتراراً بما هو قصير الأمد من اللذات ؛ وزخارف الحياة .

ثم ذكر توبيخ المؤمنين لهم وتهكمهم بهم :

(وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم فى كتاب الله إلى يوم البعث) أى وقال

الذين أوتوا العلم بكتاب الله والإيمان بالله لأولئك المنكرين : لقد لبثتم من يوم مماتكم إلى يوم البعث فى قبوركم .

وفى هذا رد عليهم وعلى ما حلفوا عليه ، واطلاع لهم على الحقيقة .

ثم وصلوا ذلك بتقريعهم على إنكار البعث بقولهم :

(فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون) أى فهذا هو اليوم الذى أنكرتموه فى الدنيا ، وزعمتم أنكم لاتبعثون ، وكنتم لاتعتقدون أنه حق ، وأنه واقع لامحالة ، لتفريطكم فى النظر ، ومن ثم استعجلتم الاستهزاء به .

ولما كانت الأدلة متظاهرة على أن الدنيا دار عمل ، والآخرة دار جزاء ، ذكر أن المعاذير لاتجدى فى هذا اليوم ، ولا يجابون إلى ما طلبوا من الرجوع إلى الدنيا ، لإصلاح ما فسد من أعمالهم ، فقال :

(فيومئذ لاينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون) أى فى هذا اليوم لاتنفع هؤلاء المجرمين معاذيرهم عما فعلوا ، كقولهم : ماعلمنا أن هذا اليوم كائن ولا أنا نبعث فيه ، ولاهم يرجعون إلى الدنيا ليتوبوا ، لأن التوبة لاتقبل فى هذا اليوم ، لأنه وقت جزاء لاوقت عمل ، وقد حقت عليهم كلمة ربهم .

والخلاصة : إنهم لايعاتبون على سيئاتهم ، بل يعاقبون عليها .

ونحو الآية قوله : « وَإِنْ يَسْتَعْتِبُوا فَمَا هُمْ مِنَ الْمُعْتَبِينَ » .

وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِنْ جِئْتَهُمْ بِآيَةٍ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ (٥٨) كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ (٥٩) فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ (٦٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر من الأدلة على الوحدانية والبعث ما ذكر ، وأعاد وكرر ، بشتى البراهين ، وبديع الأمثال ـ أردف ذلك بأنه لم يبق بعد هذا زيادة لمستزيد ، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد أدّى واجبه ، وأن من طلب شيئا بعد ذلك فهو معاند مكابر ، فإن من كذب الدليل الواضح اللائح لايصعب عليه تكذيب غيره من الدلائل :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ويُنكر الفمّ طعم الماء من سقم

الإيضاح

(ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل) أى ولقد أوضحنا لهم الحق وضربنا لهم الأمثال الدالة على وحدانية الله ، والبعث وصدق الرسول ، ليستبينوا الحق ويتبعوه ، لكنهم أعرضوا عن ذلك استكباراً وعنادا .

(ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون) أى وإن تأتهم بالآيات لايؤمنوا بها ، بل يعتقدون أنها سحر مفترى ، وما هى إلا أساطير الأولين .

ونحو هذا قوله : « إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ » .

(كذلك يطبع الله على قلوب الذين لايعلمون) أى كذلك يختم الله على قلوب الذين لايعلمون حقيقة ماتأتيهم به من العبر والعظات ، والآيات البينات ، فلا يفقهون عن الله حججه ولايفهمون عنه مايتلى عليهم من آى كتابه ، لسوء استعدادهم ، ولما دسّوا به أنفسهم من سوء القول والفعل ، فهم فى طغيانهم يعمهون .

ثم ختم السورة بأمر الرسول بالصبر على أذاهم ، وعدم الالتفات إلى عنادهم ، فقال :

(فاصبر إن وعد الله حق) أى فاصبر أيها الرسول على ما ينالك من أذى

المشركين ، وبلغهم رسالة ربك ، فإن وعده الذى وعدك من النصر عليهم والظفر بهم ، وتمكينك وتمكين أصحابك وأتباعك فى الأرض ـ حق لاشك فيه ، وليكونن لامحالة .

(ولا يستخفنك الذين لا يوقنون) أى ولا يحملنك الذين لا يوقنون بالميعاد ولا يصدقون بالبعث بعد الممات ـ على الخفة والقلق ، فيثبطوك عن أمر الله والقيام بما كلفك به من تبليغ رسالته .

وفى هذا إرشاد لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وتعليم له ، بأن يتلقى المكاره بصدر رحب ، وسعة حلم .

أخرج ابن أبى شيبة وابن جرير وابن المنذر والحاكم والبيهقى أن رجلا من الخوارج نادى عليا وهو فى صلاة الفجر فقال : « وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَ إِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » فأجابه وهو فى الصلاة : « فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ » .

ولا عجب من صدور مثل هذا الجواب على البديهة من على كرم الله وجهه ، وهو مدينة العلم .

وصلى الله على سيدنا محمد وأتباعه الكرام ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

خلاصة ما احتوت عليه السورة الكريمة من الموضوعات

(١) إثبات النبوة بالإخبار بالغيب .

(٢) البراهين الدالة على الوحدانية .

(٣) الاعتبار بما حدث للمكذبين من قبلهم .

(٤) الأدلة التى فى الآفاق شاهدة على وحدانية الله وعظيم قدرته .

(٥) الأدلة على صحة البعث .

(٦) ضرب الأمثال على أن الشركاء لا يجدونهم فتيلا ولا قطميرا .

(٧) الأمر بعبادة الله وحده ، وهى الفطرة التى فطر الناس عليها .

(٨) النهى عن اتباع المشركين الذين فرقوا دينهم على حسب أهوائهم .

(٩) من طبيعة المشرك الإنابة إلى الله إذا مسه الضر ، والإشراك به حين الرخاء .

(١٠) من دأب الناس الفرح بالنعمة والقنوط حين الشدة . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات .

(١١) الأمر بالتصدق على ذوى القربى والمساكين وابن السبيل .

(١٢) الدلائل التى وضعها سبحانه فى الأنفس شاهدة على وحدانيته .

(١٣) للخير والشر فائدة تعود إلى المرء يوم تجزى كل نفس بما كسبت .

(١٤) فى النظر فى آثار المكذبين عبرة لمن اعتبر .

(١٥) تسلية الرسول فى عدم إيمان قومه بأنهم صم عمى لا يسمعون ولا يبصرون .

(١٦) بيان أن الكافرين يكذبون فى الآخرة كما كانوا يكذبون فى الدنيا .

(١٧) الإرشاد إلى أنّ الرسول قد بلغ الغاية فى الإعذار والإنذار ، وأن قومه قد بلغوا الغاية فى التكذيب والإنكار .

(١٨) أمره صلى الله عليه وسلم بإدامة التبليغ مهما لاقى من الأذى ، فإن العاقبة والنصر له ، والخذلان لمن كذب به .